

البقايا الجنائزية والتمايزات الاجتماعية في فلسطين

حمدان طه

إن نقطة الانطلاق في دراسة التمايزات الاجتماعية من خلال البقايا الجنائزية لمجتمعات مرحلة ما قبل التاريخ والمرحلة المدينية في فلسطين، هي الفرضية القائلة بأن الأشخاص المميزين اجتماعياً في حياتهم يلاقون أيضاً معاملة مميزة في دفنهم بعد موتهم . (Taha 1990, 1999) وتعكس أشكال التمايز في دفن الميت التمايزات الاجتماعية داخل المجموعة الاجتماعية، (Saxe 1971, Binford 1972, Alekshin 1983, O'Shea 1984) وتقدم هذه الفرضية، التي تتأسس على معطيات إثنوغرافية، أداة هامة لعالم الآثار لتفسير البقايا الأثرية للمدافن .

وتتجلى التمايزات الاجتماعية من خلال البقايا الأثرية في متغيرات الدفن التالية: مكان المدفن، بناء المدفن، عمر الميت وجنسه، ووضعية الجثة، اتجاه الدفن، عدد الأشخاص المدفونين في القبر الواحد، ثم وفرة عطايا الدفن المرفقة بالميت . ويمكن قياس كل واحد من متغيرات الدفن هذه بمجموعة من القيم مثل نسبة الحدوث والطاقة المبذولة في بناء القبر (Tainter 1975) ووجود الأغراض الدالة على المكانة التي ترمز إلى المكانة التي يتمتع بها الفرد أو المجموعة . وتساعد هذه البقايا عالم الآثار في إعادة تركيب الأنظمة الاجتماعية القديمة . وتعتمد مصداقية هذه الفرضيات عموماً على أسس إثنوغرافية ومعطيات إثنو - تاريخية . لذا تعتبر البقايا الجنائزية مصدراً هاماً للمعلومات في إعادة تركيب الأنظمة الاجتماعية القديمة . ويقوم التحليل الجنائزي

على ثلاثة مصادر للمعلومات وهي: الدلائل الأثرية، المعطيات الإثنوغرافية والمصادر التاريخية. وتشكل الدلائل المادية الأثرية، بالطبع، أهم هذه المصادر من حيث وفرتها. وهي ليست ظاهرة أثرية فحسب، بل تجسد، في الوقت نفسه، ظاهرة سوسولوجية

وتشكل المعطيات الإثنوغرافية حول المجتمعات التقليدية عموماً مصدر المعلومات الرئيسي الثاني، إضافة إلى المعطيات الإثنوغرافية حول الموت والمدفن في المجتمع الفلسطيني التقليدي (Baldensperger 1901, Musil 1908, Canaan 1924, 1959, Dalman 1939 - 40, Granqvist 1965). ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المعطيات الإثنوغرافية حول الموت في فلسطين لم يسبق أن استخدمت في إطار منهجي لتفسير البقايا الجنائزية في السياقات الأثرية. وكان الهدف من رصد هذه المعطيات هو فحص مدى انعكاس التمايزات الإجتماعية في الممارسات الجنائزية للمجتمع الفلسطيني التقليدي الفلاحي التمايز اجتماعياً. وتتبدى التمايزات الجنائزية في الأدبيات الإثنوغرافية الفلسطينية في: مكان المدفن، معالجة جثة الميت، نوع القبر، وضع الجثة، اتجاهها، العمر، الجنس، الطقوس التي تحيط بالموت وعملية الدفن، ثم العطايا الجنائزية والتمايزات المنطقية. ومن بين الظواهر المثيرة للإهتمام في الملاحظات الإثنوغرافية حول المجتمع الفلسطيني عادة دفن الأطفال في الجرار والتي مورست حتى فترة قريبة في جنوب فلسطين (Canaan 1924 : 8, Ohata 1967 : Pl. 13, Toombs 1974, Stern 1978 : 8) والمعاملة المتميزة للأشخاص على أساس العمر والجنس وحدث عطايا جنائزية في المدافن البدوية، ثم المعاملة الخاصة لحالات الموت غير الطبيعي، وجوانب أخرى كثيرة للممارسات الجنائزية في المجتمع الفلاحي الفلسطيني لا يتسع المجال لذكرها في هذه المقالة (Msoffice1).

أما مصدر المعلومات الثالث حول الممارسات الجنائزية فهو مستمد من المصادر التاريخية. وتتكون هذه المصادر من النصوص العراقية القديمة (Tsukimoto 1980) (Margalith 1980, Ribar 1973, Foxvog 1980, Rashid 1980) (251 : 1980) وتوفر المعطيات الأدبية التاريخية معلومات نادرة حول الجوانب الأيديولوجية للسلوك الجنائزي، والذي لا يجد تعبيره المباشر في الدلائل المادية الأثرية.

وتعالج هذه الدراسة دلائل مرحلة ما قبل التاريخ والفترة المدينية المبكرة، ثم دراسة موضوعية للدلائل الجنائزية في «تلّ تعنّك» كدراسة حالة للممارسات الجنائزية في الفترة المدينية. وتمثل دلائل مرحلة ما قبل التاريخ والمرحلة المدينية المبكرة مسحاً رأسياً للدلائل الجنائزية في فلسطين منذ بداية الفترة الموسستيرية وحتى الألف الثاني ق. م. ويهدف هذا المسح إلى الحصول على نظرة إجمالية حول التمايزات الزمنية

للممارسات الجنائزية في فلسطين . إن دراسة الممارسات الجنائية كظاهرة متغيرة عبر الزمن يمكن أن تشكل أساساً لدراسة التغيرات الإجتماعية والحضارية، إلى جانب أصناف المعطيات الأثرية الأخرى كالتيكنولوجيا والعمارة وأنماط الإستيطان والبيئة الطبيعية... الخ . أما التحليل الموضوعي للممارسات الجنائزية في فلسطين فقد جرى من خلال دراسة مقبرة الأطفال الداخلية في «تلّ تعنك» والتي تعود للعصر البرونزي الوسيط، وتشكل النهاية الكرونولوجية للفترة التي يشملها هذا البحث .

المدافن الأولى لمجتمعات الجمع والصيد

تتميز البقايا الجنائزية الأولى للإنسان الملتقط والصيّاد في مرحلة ما قبل التاريخ بالبساطة والتشابه . وتعكس البساطة في الممارسات الجنائزية البناء الإجتماعي الداخلي لمجموعات ما قبل التاريخ وطبيعة علاقتهم بالأرض، التي لا تعدو أن تكون موضوعاً للعمل ليس إلا (Tilly 1981) . ولم تشهد هذه الفترة محاولة حقيقية لزيادة الطاقة الإنتاجية للموارد . وكان تماسك المجموعة الإجتماعية يعتمد، بالدرجة الأولى، على النشاطات الإقتصادية العابرة أكثر من اعتماده على صلة القرابة . وتجد الطبيعة المتساوية للممارسات الجنائزية للمجموعات الجامعة والصيّادة تعبيرها في الطقوس البسيطة التي تكرر للميت، ثم إلى غياب مناطق دفن رسمية . كما أننا لا نجد انعكاساً واضحاً لتقسيمات الجنس والعمر في المجموعة المدروسة، ربما في إشارة إلى أنهم يتلقون المعاملة نفسها .

وتعود أولى المدافن القُصديّة في فلسطين إلى الفترة الموسستيرية المتأخرة (Wright, 1978, Bar-Yosef 1980 : 113) وقد تم الكشف عن عينة من حوالي أربعين مدفناً من هذه الفترة في ستة مواقع في فلسطين وهي مغارة الطابون، مغارة السخول، مغارة الكبارا، جبل قفزة، وادي عامود وكهف شقبة . ويمكن ملاحظة درجة قليلة من التمايزات الجنائزية في هذه العينة . ويمكن القول بأن الدفن البسيط في وضعية الإنثناء، أو وضعية شبه الإنثناء تمثل ممارسة الدفن السائدة عند الجماعات الموسستيرية الجامعة والصيّادة . وقد لوحظت معاملة مختلفة لوضعية الجثة في مغارة السخول، حيث وجد طفل مدفون في وضعية القرفصاء .

وقد وجدت هذه البقايا جميعها في مناطق السكن، غالباً في الكهوف أو أمامها . وأمكن التوصل إلى الملاحظتين التاليتين عند دراسة التوزيع المكاني لهذه المدافن : الأولى : لوحظ وجود قدر من التمايز المكاني بين البالغين والأطفال، حيث تتركز مدافن البالغين عند مدخل الكهف، في حين تتركز مدافن الأطفال عند جوانب الكهف . الثانية : احتمالية وجود نوع من العلاقة ما بين المدافن ومواقد النار . إن نسبة الأطفال الرضع قليلة جداً، ونسبة الذكور أكبر من نسبة الإناث في العينة

الموستيرية في فلسطين. ومعظم هذه المدافن وجد في وضعية الإثناء أو الإثناء الشديد. وقد وجد القليل من المواد التي يشتبه فيها كعطايا جنازية ضمن علاقة معينة مع المدافن الموستيرية، بما يشير إلى أن إرفاق العطايا الجنازية مع الميت لم يكن ممارسة منتظمة . وتتكون هذه المواد من عظام حيوانية وأدوات صوانية .

ويمكن ملاحظة بعض الإختلافات البنيوية بين الدلائل الفلسطينية والدلائل المكتشفة في مناطق غرب أوروبا . (Biford 1968 : 143) وفي العينة الصغيرة التي قام بدراستها بنفورد، تبين أن خمسة قبور فقط (21%) مرتبطة بالعطايا الجنازية في فلسطين بالمقارنة مع (41%) في أوروبا . وربما يشير هذا إلى أن الطقوس كانت تلعب دوراً ثانوياً في الحفاظ على التماسك الإجتماعي للجماعات الموستيرية التي قام اقتصادها على الإلتقاط والصيد في منطقة الشرق الأوسط .

وعلى النقيض من الدلائل الأوروبية ودلائل الفترة الموستيرية السابقة، عثر على عينة صغيرة من البقايا الجنازية في العصر الحجري القديم الأعلى والفترة الأولى من العصر الحجري الوسيط في فلسطين . وجاءت هذه الدلائل من مواقع النبي داود، مغارة الواد، عين جيف، الحرانة، الكبارا وقفز . وتشير الكمية القليلة من البقايا الجنازية ربما إلى تحول في العلاقة المكانية ما بين المدفن والمسكن في حياة الإنسان. أما التفسير الآخر الممكن لغياب هذه البقايا فيعود ربما إلى طبيعة حفظ البقايا الجنازية .

وعثر على بقايا عظام بشرية محروقة في مغارتي الحمام (Bar-Yosef 1970 : 31) والكبارا (Turville - Petre ,1932, Bar-Yosef 1970 : 31, Steklis 1977a : 700) ولا يوجد دليل حول ما إذا كان حرق عظام الميت نتيجة عمل قصدي أم أنه نجم عن حريق عابر. ووجد معظم الأشخاص الأموات في وضعية الإثناء . وعثر في موقع الحرانة 4 في شرق الأردن (Rolston 1982 : 22, Muheisen 1988 : 358) على أشخاص في وضع التمدد الكامل على ظهورهم . وعلى النقيض من الصورة العامة لممارسات الدفن في العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا الغربية عثر على القليل من الأغراض مرفقة مع الميت في فلسطين . وتتكون الأغراض المكتشفة في سياقات المدافن من عظام حيوانية وأدوات طحن حجرية وأدوات صوانية. وفي موقع النبي داود: (Kaufman 1989 (277, Fig. 2a-c) عثر على قبر يتكون من بناء على شكل صفيين من الحجارة وهاون حجري موضوع على الجمجمة . وتمثل هذه العناصر البنيوية والعظام الحيوانية المرفقة درجة عالية من المشاركة الإجتماعية .

المخيم القاعدي النطوفي وطقوس الدفن لدى المجموعات السلافية

أظهرت التنقيبات الأثرية في فلسطين كمّاً لا بأس به من البقايا الجنازية للمجتمعات

ما قبل الزراعية النطوفية . وتم الكشف عن عينة من حوالي 370 شخصاً في ثمانية مواقع وهي: مغارة الواد، عرق الأحمر، مغارة الحمام، الكبارا، الملاحة، شقبة، وادي فلاح ووادي الحمة . وقد استخدمت عدة فرضيات لفحص العلاقة بين الممارسة الجنائزية النطوفية والمخيم القاعدي النطوفي، وكيفية استخدامها لفهم البناء الداخلي للجماعات النطوفية . والسؤال الأساسي يتحدد في طابع العلاقة بين ممارسات الدفن النطوفية وظهور المخيم النطوفي .

ويتوافق نشوء المخيم القاعدي النطوفي (Wright 1978, Bar-Yosef 1981: 401) ، مع ظهور مناطق دفن شبه رسمية مرتبطة به . وتعود خلفية توافق هاتين الظاهرتين إلى تطور نوع من الجماعات المتعاونة المنظمة على أساس نسب سلالتي ممتد (Saxe 1971, Chapman 1981, Tilly 1981, Brandt 1988). وتشير الملاحظتان التاليتان في الدلائل الأثرية إلى ظهور هذه الجماعات السلالية :

ففي الأولى، تدل التحليلات الأنتروبولوجية للبقايا العظمية في مغارة الحمام على علاقات أسرية (Bar - Yosef and Tchernov 1966 : 108, Bar-Yosef 1970 : 141, Bar - Yosef 1978: 1221) ،

في حين تدل الثانية على ممارسة عادة الدفن الجماعي . إن نزوع الجماعات الملتقطة والصيداء المتزايد نحو الإستقرار قد زاد حدة التناقض بين الإستغلال الحر للموارد، من جهة والسيطرة عليها في منطقة صغيرة من جهة أخرى . ويجسد ظهور المخيم القاعدي النطوفي الترابط المكاني والإجتماعي للجماعات النطوفية . وتعتبر المخيمات القاعدية النطوفية التعبير المادي لتطور مجموعات سلالية متعاونة، تلعب فيها علاقة القرابة دوراً هاماً في الحفاظ على التماسك الإجتماعي للمجموعة . ويأتي تطور مجموعات النسب النطوفية في المناطق المختلفة كنتيجة للتطور الإقتصادي في هذه الفترة . وقد اعتمد الإقتصاد النطوفي ما قبل الزراعي على الجمع المكثف للحبوب البرية (Henry 1973: 189, Wright 1978 : 218) ، والذي ينطوي على الإستغلال الأقصى للموارد في منطقة محددة .

إن عملية تزايد مستوى التعقيد الإجتماعي تجد تعبيرها في التغييرية العالية للممارسات الجنائزية . ويمكن افتراض تطور بعض أشكال الهرمية الإجتماعية للعمل كآلية للضبط الإجتماعي . وقد استخدمت الطقوس كأداة أيديولوجية فاعلة للحفاظ على وحدة المجموعة وترابطها (Tilly 1981) ربما أكثر من أي وقت سابق . وشهدت هذه الفترة حدوث مدافن أولية ومدافن ثانوية في الوقت نفسه . وقد وجدت المدافن الأولية في أوضاع التمدد أو الإنثناء . وعلى النقيض من المدافن الموسستيرية ومدافن العصر الحجري القديم الأعلى، طراً تزايد ملحوظ على نسبة حدوث العطايا الجنائزية في هذه الفترة . ويمكن أن يكون هذا تعبيراً مباشراً عن تطور مراتبية معينة داخل

المجموعات النطوفية .

ويشير حدوث عقود الصَّدَف البحرية في المدافن النطوفية إلى تطور شكل بسيط من المنتجات الساحلية والتوزيع في مناطق العمق الداخلي (Wright 1978) . ويعود منشأ هذه الأصداف إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وقد فسر هنري رايت حدوثها كألية لتعزيز التحالفات ما بين المجموعات السلالية .

المجتمعات الزراعية المبكرة والدفن الطقوسي

على النقيض من جماعات الإلتقاط والصيد، أصبحت الأرض بالنسبة للزارعين الأوائل ذاتاً للعمل ووسيلة لإنتاج الثروة وإعادة إنتاج المجموعة الإجتماعية . وأصبح ينظر إلى الأرض كملكية للأموال والأحياء والأبناء الذين لم يولدوا بعد (Tilly 1981: 378-379).

ارتبطت النشاطات الزراعية الأولى في خضم عملية زيادة الطاقة الإنتاجية للموارد في منطقة معينة بظهور المستوطنات الثابتة . ووافق ذلك أيضاً بناء اجتماعي معقد. وتطلب تعدد أوجه الأنشطة الزراعية وتزايد مستوى التعقيد التنظيمي للمجموعة تفاعلاً أكبر مما هو موجود عند جماعات الإلتقاط والصيد، ولهذا أصبح رباط القرابة التعبير المباشر عن عملية الإنتاج الإقتصادي وتكاثر المجموعة الإجتماعية (Tilly 1981: 378) . وربما أثرت مجمل هذه التغييرات على مكانة المرأة والأطفال، وهما عنصران أساسيان في عملية إعادة إنتاج المجموعة .

ويُجمل ساكس (Saxe 1971) الذي طوّر فرضيته حول العلاقة ما بين أماكن الدفن الرسمية للأموال وسيطرة مجموعة سلالية على موارد محدودة بالقول «إلى الحد الذي تصان فيه حقوق مجموعة متعاونة في استعمال موارد حيوية ولكنها محدودة، أو السيطرة عليها، أو تسبغ عليها الشرعية بواسطة مجموعة نسب سلالية، سيحصل أموات هذه المجموعة على مناطق دفن رسمية من أجل الدفن الشمولي للأموال». والطقوس المعقدة التي رافقت ممارسات الدفن في المجتمع الزراعي المستقر في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري لا بد وأنها خدمت هذا الغرض .

ظهرت ممارسة دفن معقدة للغاية عند المجتمعات الزراعية المبكرة في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري في فلسطين. ويتمثل هذا بعينة كبيرة من البقايا الجنائزية من مرحلة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري (أ) أو (ب) أن عادة معاملة الجمجمة بعد الموت وإزالة الفك السفلي استحدثت في المرحلة الأخيرة في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري (أ) كما يتجلى ذلك في تل السلطان في أريحا (Kurth and Rohrer-Ertl 1981: 436) ووادي فلاح (Noy 1977 : 79, Noy et al. 1978)

(Bar - Yosef et al. 1980, Bar-Yosef and Giphner بكر 906, Moore 1978 : 101)

. (1985, Gopher 87 : 1984 أما الأغراض الجنائزية التي ترافقت مع هذه المدافن فقليلة جدا.

وعثر على جميع البقايا الجنائزية في مستوطنات العصر الحجري الحديث ضمن علاقة مكانية مع المساكن: (1985, Rollefson et al. 1981: 435, Kurth and Rohrer-Ertl 109). وقد لوحظ وجود نماذج معينة من التوزيع في بعض مواقع العصر الحجري الحديث. وتظهر البقايا الجنائزية من هذه الفترة درجة عالية من التمايزات. ووجدت دلائل واضحة على ممارسات الدفن الأولية والثانوية في الموقع الواحد. وتشكل معاملة الجثة أو جزء منها، بعد الموت الملمح المميز لممارسات الدفن في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري في فلسطين. ويبدو أن العمر كان المحدد الأهم في هذه الممارسة، لاقتصارها على البالغين والأطفال الكبار، أما الأطفال الصغار فقد دفنوا مكتملين كقاعدة.

أما الظاهرة المثيرة للإهتمام في معاملة الجثة ما بعد الموت فتتمثل بالجمامج المدهونة والمكسوة بالملاط، التي عثر عليها في تنقيبات تل السلطان (1956, Cornwall) (1981, Kurth and Rohrer - Ertl وبيسمون Lechevallier and Perrot 1973, Lechevallier) (1978, Yakar and Hershkovitz) في فلسطين، وعين غزال (1985, et al. في الأردن ونل رماد (1967, De Contenson) في سوريا. وقد فسرت هذه الممارسة من قبل علماء الآثار في فلسطين كدليل على عبادة السلف: (1957, Kenyon 73, 1957 : 60 - 64, 1971 : 6, De Contenson 1971 : 281, Cauvin 1972, Hershkovitz and Gopher 1988: 123, Yakar and Hershkovitz 1988 : 63). وهو تفسير انطباعي يقوم على المماثلة الإثنوغرافية المباشرة لدلائل من أفريقيا. إن هذا التمثيل التشكيلي للجمامج يمثل، بلا شك، معاملة متميزة لبعض أفراد المجموعة في فترة شهدت تنامياً ملحوظاً للهرمية الإجتماعية كتعبير عن العضلات التنظيمية المعقدة التي بدأت تواجه المجتمعات الزراعية المبكرة. إن عملية إزالة الجمجمة ومعالجتها بالملاط والدهان والأصداف، ثم إعادة دفن بقايا الجثة تنطوي على قدر كبير من المشاركة الإجتماعية (1965, Miles) للمجموعات المتعاونة تجاه الميت.

وقد لعبت الطقوس عند المجتمعات الزراعية المبكرة دوراً هاماً كألية للضبط الإجتماعي، حيث أن الطقوس تشكل نظرة موحدة تجاه العالم. إن الطبيعة المعقدة التي تظهر في ممارسات الدفن في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري ما هي إلا مؤشر على التغيرات النوعية في النظام الإجتماعي. وتلعب هذه الطقوس دوراً في الحفاظ على التماسك الداخلي للمجموعات المتعاونة. وتتجلى تقسيمات العمر والجنس عند المجموعات النيوليتية ما قبل الفخارية من خلال المعاملة المتميزة للأطفال الصغار والمعاملة الخاصة للمرأة. ورغم أن الممارسة الخاصة بالجمامج المكسوة بالملاط تشمل

الجنسين، فيعتقد بأن نسبة كبيرة من هذه الجماجم المنقبة في أريحا تعود لنساء بالغات (Strouhal 1973: 244) ، بما يشكل مؤشراً على المكانة الإجتماعية المرموقة للنساء في مجتمعات العصر الحجري الحديث.

وفي العصر الحجري الحديث تم التنقيب عن عينة صغيرة فقط من البقايا الجنائزية في فلسطين . (Taha 1990 : 33 - 43) وقد عثر على هذه البقايا في عدد محدود من المواقع الأثرية مثل خربة القحوانة ويافا (Kaplan 1978) وتل القاضي (Gopher and Greenberg 1987) وتل أبو زريق (Anati et al. 1973) وعين الجربا (Kaplan 1976a) وعين غزال (Rollefson and Simmons 1985) ووادي شعيب (Simmons et al. 1989) . وبعض هذه البقايا المتفرقة وجدت في سياقات تراكمية . والصورة غائمة نسبياً، وهناك فرضيتان لتفسير غياب البقايا الجنائزية في هذه الفترة . الأولى أن ثمة تغييراً قد طرأ على ممارسات الدفن بحيث لا يسمح بحفظ طويل للبقايا العظمية، والثاني وجود مدافن خارج حدود المستوطنات البشرية يصعب تحديد أماكنها .

العصر الحجري - النحاسي وظهور المقابر العامة

تشير بقايا المدافن في هذه الفترة إلى درجة عالية من التمايزات الجنائزية . كما يشير التنوع المناطقي في الممارسات الجنائزية إلى البناء الإجتماعي المعقد في هذه الفترة . ويتجلى هذا من خلال ممارسة الدفن الثانوي في المعازم الفخارية والحجرية في المناطق الساحلية (Sukenik 1937, Anati 1963, Mastin 1965, Gilead 1968, Perrot and Ladiray 1980) ومدافن الكهوف في المنطقة الوسطى واللحود والرجوم والأنصاب في المناطق الشرقية والشمالية شبه الجافة . ثم القبور الدائرية والنواميس في النقب (Levy and Alon 1982, 1985, 1987) وسيناء (Bar-Yosef et al. 1977 : 65 - 88) . وقد تعبر مجموعات القبور عن تقسيمات فروع سلالات النسب في الممارسة الجنائزية في العصر الحجري - النحاسي.

ويفسر ساكس (Saxe 1970) ظهور مناطق الدفن الخارجية كألية لإسباغ شرعية الحقوق الجماعية للمجموعات السلالية على المصادر الأساسية كالأرض والماء... الخ. وتحافظ هذه الجماعات على مناطق دفن رسمية لدفن الميت . وتقدم هذه الفرضية أساساً لتفسير ظهور مقابر العصر الحجري - النحاسي المنفصلة مكانياً عن مناطق السكن . وأخذت هذه الحالة مجرى تطورها في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري ، وربما بشكل بدائي في الفترة النطوفية التي سبقتها بقليل، وهي تتفاوت في درجة تعقيداتها الإجتماعية الداخلية ودرجة التفاوت الإجتماعي .

وفي مقابر العصر الحجري - الحديث الجماعية تم دفن الأطفال الكبار واليافعين والبالغين مع بعضهم بعضاً بما يدل على المكانة المتساوية لهذه الفئات العمرية . وقد

دفن الأطفال مع البالغين بعد وصولهم سن الخامسة أو السادسة (Levy and Alon 1982 : 53) . بما يشير إلى المكانة المكتسبة لهذه الفئة كعضو كامل في المجموعة، أما الأطفال الصغار دون السنتين فقد دفنوا تحت مصاطب البيوت في المستوطنة، بما ينطوي على مشاركة اجتماعية أقل باعتبار ذلك حدثاً عائلياً . وتتجلى تقسيمات الجنس في التوزيع المكاني للمدافن وفي المعاملة المتميزة للجنّة . وارتبطت عادة الدفن الثانوي في المدافن العامة بفئات البالغين والأطفال الكبار، في حين دفن الأطفال الرضع ضمن علاقة واضحة مع المسكن في مدافن أولية . ولا توجد دلائل كافية حول ما إذا كان الجنسان قد تلقيا نفس المعاملة، وذلك بسبب نقص تحديد الجنس خصوصاً في المدافن الثانوية .

لقد بات واضحاً بأن الأنصاب والرجوم، (Turville - Petre 1931 : 155 - 166, Anati 1963 : 278, Swager 1965 : 5 - 36, Gilead 1968: 16 - 26, Yassin 1985 : 63 - 69) المكتشفة في فلسطين والأردن تحوي قليلاً من البقايا العظمية . ولهذا لا يمكن اعتبارها مدافن جماعية . وبالمقابل فإن هذه المدافن التذكارية هي رموز لاستمرارية القبائل المحلية وعلاقتها بالأرض .

ويمكن استنتاج وجود قدر من المراتبية الاجتماعية من نماذج البقايا الجنائزية في العصر الحجري - النحاسي . ويقدم النموذج المشيخي الذي اقترحه ليفي وألون (1982) في تفسيرهما للتمايزات الاجتماعية في شكيم أساساً لتحريات أخرى إضافية حول هذه الفترة، التي سبقت مباشرة ظهور المراكز المدينية المبكرة في فلسطين .

الفترة المدينية المبكرة والمدافن الجماعية

يشير مصطلح المدينية المبكرة إلى المجتمع الطبقي الأول الذي بزغ في بداية العصر البرونزي المبكر في فلسطين (Stiebing 1970 : 11 - 20, Hanbury - Tenison 1986 : 231). (246) . ويقسم العصر البرونزي المبكر تقليدياً إلى ثلاث فترات : العصر البرونزي المبكر الأول «أ» و«ب»، ويحمل ملامح ما قبل مدينية واضحة، ترتبط بنيويًا بالمرحلة المتأخرة من العصر الحجري - النحاسي، والعصر البرونزي المبكر الثاني، والعصر البرونزي المبكر الثالث والتي تمثل السياق الحضاري المديني الأول في فلسطين، وتميز بإنشاء المراكز المدينية الكبيرة، التي توصف غالباً بدول المدن .

وتعتبر المدافن الجماعية هي الممارسة السائدة للدفن في العصر البرونزي المبكر (Kenyon 1970: 86, Stiebing 1970: 27). ولم يول البحث الأثرى المبكر اهتماماً كبيراً للجوانب الاجتماعية والإقتصادية والدينية لهذه النوع من القبور والمقومات المتوفرة فيها لإعادة تركيب الأنظمة الاجتماعية للعصر البرونزي المبكر . وتقدم المدافن الجماعية معلومات عن المجموعة الاجتماعية أكثر مما تقدم حول الفرد .

وكان الدفن في المدافن الجماعية في مقابر خارج أسوار المدينة (Kenyon 1957: 95) هو شكل الدفن السائد في العصر البرونزي المبكر الأول في فلسطين . وقد يعود ظهور المدافن العامة الخارجية إلى الوعي الصحي المتزايد بضرورة الفصل ما بين المسكن والمدفن في الفترة المدينية . وتمثل هذه المدافن في أغلب الأحوال، سلالات نسب، بما يشير إلى البناء ما قبل المديني في العصر البرونزي المبكر الأول . وتنعكس اختلافات الدفن في ممارسة حرق الموتى في بعض المواقع: (Macalister 1912: 285, Kenyon 1960: 21, Callaway 1962, Kaplan 1976b: 45). سلالات النسب، ويشير حدوث بعض الأغراض الدالة على المكانة في بعض المدافن إلى قدر من المراتبية الإجتماعية في هذه المدافن .

وتتجلى التمايزات الإجتماعية في حدوث أنواع مختلفة من المدافن مثل القبور البثرية والكهوف الطبيعية ومدافن الجرار . وبعض المدافن مزودة بمنصة حجرية أو تحويطة ترمز، ربما، إلى المكانة الإجتماعية العالية لبعض الأفراد في القبيلة . وفي العصر البرونزي المبكر دفن الأطفال واليافعون وبالغون مع بعضهم بعضاً في إشارة إلى المكانة المتساوية . وقد دفن الأطفال مع البالغين بعد بلوغهم سن الخامسة أو السادسة، أما الأطفال الرضع تحت سن سنتين فلم يدفنوا في هذه المدافن الجماعية.

ويتكون الأثاث الجنائزي من الأواني الفخارية والزينة الشخصية وبعض الأدوات الأخرى . أما أكثر الأغراض الدالة على المكانة الإجتماعية والتي يمكن النظر إليها كمؤشر على المكانة الإجتماعية العالية في هذه المدافن الجماعية، فتتكون من الأغراض المعدنية (الذهب والنحاس) وأواني الألباستر.

استمرت ممارسة الدفن الجماعية في مقابر خارجية في العصر البرونزي المبكر الثاني والعصر البرونزي المبكر الثالث، في إشارة إلى تشابه البناء الإجتماعي مع المرحلة الأولى، رغم أن عدد الأفراد المدفونين في قبر واحد هم أقل عدداً . ويمكن تفسير التمايزات الجنائزية على صعيدين: الأول التمايزات الإجتماعية بين القبائل المختلفة، والثاني التمايزات الإجتماعية داخل كل قبيلة على حدة . وهناك تزايد ملحوظ في نوع العطايا الجنائزية ونسبة حدوثها في المرحلتين الأخيرتين من العصر البرونزي المبكر

إن عملية التغيير من الحضارة المدينية القائمة على الزراعة والتجارة إلى نمط حياة رعوية قائمة على الزراعة الموسمية وتربية القطعان تجد تعبيرها في التغيير الحاسم في ممارسات الدفن في نهاية هذه الفترة . وفي الفترة التي تلت العصر البرونزي المبكر استبدلت عادة الدفن في المقابر الجماعية تماماً بعادة الدفن في المقابر الفردية في المقابر البثرية .

الفترة الإنتقالية والمدافن الفردية

تمثل الفترة الإنتقالية من العصر البرونزي المبكر إلى العصر البرونزي الوسيط واحدة من إشكاليات علم الآثار الفلسطيني . وتوصف هذه الفترة عموماً كفترة ساد فيها نمط حياة رعوي شبيه بحياة البداوة، وغياب كلي لمظاهر الحياة المدنية التي ميزت الفترة التي سبقتها وتلتها . (Lapp 1966, Mazar 1965, Daver 1987) ولذلك فإن البقايا الجنائزية تشكل في أغلب الأحوال الصنف الوحيد للبقايا الأثرية المتوفرة من هذه الفترة .

وقد جرى استبدال كلي للمدافن الجماعية للمجتمع المدني المبكر في العصر البرونزي المبكر الأول والثاني والثالث بالمدافن الفردية . والتفسير التقليدي لهذا التغيير الراديكالي باعتباره نتيجة للهجرة لم يعد كافياً، ومن المحبذ تجاهله . وبالمقابل يجدر النظر إلى نمط الحياة الرعوية كاستراتيجية تكيفية لمواجهة التغيرات الحاسمة في الشروط الإقتصادية - الإجتماعية والظروف الأيكولوجية .

وقد تم العثور على مقابر العصر البرونزي المبكر الرابع - العصر البرونزي الوسيط الأول في كافة المناطق في فلسطين بما يدل على أن التغيير كان شاملاً . وكان الدفن الفردي في المقابر البئرية يمثل ممارسة الدفن السائدة في هذه الفترة، ويقدم هذا النموذج من المدافن معلومات أوفى عن الفرد منه عن المجموعة الإجتماعية . ولا بد أن ممارسة الدفن كانت نشاطاً مركزياً في هذه الفترة (Ortner 1981 : 130) وذلك بسبب وجود مقابر مركزية فيها آلاف القبور كمقابر ظهر المرزبانة وعين سامية وباب الذراع، وبسبب عظم جهد العمل المبذول لقطع هذه القبور في الصخر الصلد وتجهيزها .

ومن الملامح اللافتة في قبور الفترة الإنتقالية غياب أية علاقة ما بين هذه المقابر وأماكن الإستيطان البشري . أما البقايا الإستيطانية في هذه المواقع فهي سطحية، وتتكون غالباً من آثار استعمال للسطح كدليل على التخييم المؤقت أو السكن في الكهوف كما هو الحال في جنوب فلسطين (Dever 1987). ولم يعثر على بقايا طبقية سوى في بعض القرى الصغيرة في شرق الأردن ومنطقة النقب .

أما الأغراض الجنائزية المرفقة مع الميت في هذه المدافن فهي ذات طبيعة بسيطة عموماً، وتتكون بشكل رئيسي من الأواني الفخارية والأسلحة . ويمكن الإستدلال على التراتبية الإجتماعية من خلال حدوث بعض الأغراض الدالة على المكانة التي ترمز إلى المكانة الإجتماعية الخاصة لرؤساء القبائل ربما. لكن أنماط البقايا الجنائزية تشير إلى مجتمع يتميز بالمراتبية أكثر من الإشارة إلى مجتمع متساو . ويكمن الفرق الحاسم بين الرعاة البدو للفترة الإنتقالية، ما بين العصر البرونزي المبكر والعصر البرونزي الوسيط، والجماعات المتساوية لمرحلة ما قبل التاريخ في طبيعة علاقتهم بالموارد الطبيعية. فالقبائل الرعوية البدوية هي جماعات سلالية مؤسسة على قاعدة مناطقية

وتختص بتربية القطعان ... الخ، ولا تعتمد اعتماداً كلياً على استغلال الموارد الطبيعية فقط.

العلامة الفارقة الأخرى لهذه المدافن هي نسبة الحدوث العالية للأسلحة فيها كعطايا جنائزية، فهي تمثل أعلى نسبة حدوث للأسلحة في المقابر في التاريخ الحضاري الفلسطيني القديم . ويشير تركز الأسلحة في مقابر الفترة الإنتقالية ربما إلى ازدياد حدة النزاعات الداخلية ما بين القبائل المختلفة.

عودة الحياة المدنية وتعددية الممارسات الجنائزية

ينقسم العصر البرونزي الوسيط في فلسطين تقليدياً إلى ثلاث مراحل: العصر البرونزي الوسيط الثاني (أ) و «ب» و «ج». وتستعمل اصطلاحات مختلفة لوصف الإنتقال من العصر البرونزي الوسيط الأول إلى العصر البرونزي الوسيط الثاني (أ) وما زال الجدول دائراً حول التقسيم ما بين العصر البرونزي الوسيط الثاني «ب» و «ج». ولكن الاختلافات النوعية في تكنولوجيا صناعة الفخار والعمارة، وإلى حد ما البقايا الجنائزية، تبرر مثل هذا التقسيم .

إن البناء المعقد للمجتمع المدني في العصر البرونزي الوسيط الثاني يجد انعكاسه في الممارسات الجنائزية . وعلى النقيض من فترة التمدن الأولى في العصر البرونزي المبكر، فإن عدداً قليلاً من الأفراد وجدوا مدفونين في المقابر الجماعية في هذه الفترة، في إشارة ربما إلى عائلات نووية وممتدة . والإختلافات في تكوين هذه المدافن ربما يعود إلى درجة التعقيد الإجتماعي . وقد مورست عادة الدفن الجماعية والفردية في هذه الفترة، بما يوفر معلومات عن البناء الإجتماعي الداخلي .

ولا يمكن دائماً تقرير مكانة الفرد في المدافن الجماعية، ولكن نمطية البقايا العظمية وعطايا القبور التي عثر عليها في بعض المدافن الجماعية في أريحا ربما تسمح بتقرير مكانة الفرد، ويمكن استشفاف التقسيم الإجتماعي الطبقي في هذه المدافن من خلال التمرکز العالي للثروة في جزء من المقابر الجماعية والفردية .

وتعتبر الأواني الفخارية العطايا الرئيسية في هذه المدافن . ولا بد أنها مثلت المتطلبات الدنيا لممارسة الدفن . ويمكن استنتاج هذه الوظيفة من خلال نسبة الحدوث العالية لهذا الصنف من عطايا القبور . إن تحليل التمايزات الإجتماعية مؤسس عموماً على توزيع الأغراض الدالة على المكانة . وتتكون الأغراض الدالة على المكانة في هذه الفترة من الأغراض المعدنية والأغراض المستوردة والأسلحة والزينة الشخصية والأدوات وبيض النعام . ويمكن رؤية الأغراض المستوردة والأغراض المصنعة من مواد غير محلية كمؤشر على المكانة الإجتماعية العالية للمتوفى .

إن النمطية المعقدة للبقايا الجنائزية، وتمرکز الأغراض الدالة على المكانة في جزء

من القبور، تمثل تعبيراً واضحاً عن مجتمع طبقي. والتمايز ما بين المراحل المتعاقبة للعصر البرونزي الوسيط الثاني هو تمايز كمي أكثر من كونه تمايزاً كيفياً. ومن الملامح المميزة لممارسة الدفن في العصر البرونزي الوسيط الثاني «أ» وجود أعداد كبيرة من المدافن الداخلية. وتوجد مؤشرات على أن فئات عمرية مختلفة تتلقى معاملة جنازية متميزة. فالأطفال الرضع والأطفال الصغار يدفنون داخل المستوطنة تحت مصاطب البيوت، وذلك تمشياً مع مكانتهم الاجتماعية المتدنية، في حين أن البالغين من كلا الجنسين يتم دفنهم في مقابر عامة خارجية ولا توجد، للأسف الشديد، معطيات دقيقة حول التقسيم الجنسي في هذه الفترة نظراً لنقص تقرير الجنس غالباً في العينة المقبرة من هذه الفترة. ويجد التقسيم الطبقي لهذا المجتمع المدني تعبيره في تمركز الثروة في بعض القبور الجماعية. وتظهر درجة عالية من التغييرية الجنازية في مقابر العصر البرونزي الوسيط الثاني «ب» و «ج». ويعكس البناء الداخلي المعقد للمراكز المدنية. وكانت المدافن الجماعية هي عادة الدفن السائدة في هاتين المرحلتين، ولكن المقابر الفردية الممثلة للمعاملة الجنازية المتميزة ممثلة أيضاً في هذه الفترة. وتظهر المدافن الجماعية والفردية في المدافن العامة الخارجية خارج حدود المستوطنة وداخلها. وتتميز البقايا الجنازية للعصر البرونزي الوسيط الثاني «ب» و «ج» بنسبة حدوث عالية للمرفقات الدالة على المكانة. ويشير تمركز الثروة في جزء من المدافن الجماعية في معظم المواقع إلى نشوء طبقة نخبة في المراكز المدنية للعصر البرونزي الوسيط الثاني في فلسطين. وفي هذه الفترة دفنت فئات الأطفال الكبار واليافعين والبالغين في مقبرة واحدة. وقد دفن الأطفال في المدافن الجماعية في المقابر العامة برفقة الأغراض الدالة على المكانة، حيث دفنوا إلى جانب البالغين بعد بلوغهم سن السادسة أو الخامسة. أما المواليد الجدد وحتى عمر سنة واحدة فقد أرفقت معهم بعض الأواني الفخارية. وهناك مؤشرات بأن الجنسين قد تلقوا معاملة مختلفة. وهكذا فإن بعض مظاهر تشكيلات المجتمع الطبقي الأول، التي تعرف باسم دولة-المدينة، تجد انعكاساتها في الممارسات الجنازية لهذه الفترة. ويأتي التعبير عن هذه التغييرات النوعية في نمطية بناء القبور، والتوزيع التمايز للمدافن وعدم المساواة في توزيع الثروة. وتمركز الثروة في جزء من هذه المدافن يشير إلى ظهور طبقة نخبة اجتماعية جديدة في المراكز المدنية للعصر البرونزي الوسيط الثاني. الميزة الإضافية الهامة الأخرى للتقسيم الطبقي في هذه الفترة تتمثل في ظاهرة حدوث الأغراض الدالة على المكانة مع الأطفال، كدليل على المكانة الموروثة وليست المكتسبة.

مقبرة الأطفال في «تلّ تعك»

بعد هذا العرض الرأسي للدلائل الجنائزية من الفترة الموسستيرية وحتى الألف الثاني ق. م . وذلك بهدف رصد عملية التغيير على الممارسات الجنائزية في المنظور الزمني ننتقل إلى عرض موضعي لمقبرة الأطفال في «تلّ تعنك» . وهي دراسة حالة تهدف إلى تحليل التمايزات الجنائزية في سياق تاريخي معروف ومحدد في المنظور الأفقي .

يقع «تلّ تعنك» في الزاوية الجنوبية الشرقية لمرج ابن عامر في فلسطين . وأظهرت التنقيبات الأثرية التي جرت في هذا الموقع دلائل استيطان بشري منذ الألف الثالث قبل الميلاد وحتى الفترة العباسية . وقد تم الكشف في هذا الموقع عن عدد إجمالي مكون من 108 من المدافن الداخلية، تعود بمعظمها إلى العصر البرونزي الوسيط الثاني «ج» . وهي المدافن التي نقب عنها كل من ارنست سيلين (1905 - 1904 Sellin) أثناء التنقيبات التي جرت ما بين 1902 - 1904 وبول لاب (1969, 1967b, 1967a, 1964 Lapp) (1978 Glock) أثناء التنقيبات التي جرت ما بين 1968 - 1963 . ويهدف تحليل البقايا الجنائزية في «تلّ تعنك» (264 - 263 : 1990, 1999 Taha) إلى استنتاج التمايزات الإجتماعية في الموقع .

أمكن التمييز ما بين ثلاث مراحل من الإستيطان في نطاق العصر البرونزي الوسيط الثاني «ج» في الموقع . وقد وجدت معظم المدافن في سياقات سكنية واضحة ، وخمسة قبور منها أرخت ستراتيفرافياً إلى العصر البرونزي المتأخر الأول . ويشمل التحليل الجنائزي دراسة نمطية للبقايا الجنائزية ومحاولة ربطها بأشكال التنظيم الإجتماعي . ويتكون الإطار النظري للتحليل من ستة مستويات من الملاحظات الجنائزية، التي تعكس التمايزات الإجتماعية انطلاقاً من الفرضية الأساسية لهذه الدراسة . وأصناف الملاحظات هي : مكان القبر، نوعه، وضعية الدفن، اتجاه الدفن، عدد الأموات والعطايا الجنائزية . هذا إلى جانب الديموغرافيا القديمة والأمراض القديمة . وجدت جميع هذه المدافن في حدود المستوطنة . وتتضح نموذجية التوزيع من خلال وجود مجموعتين من المدافن : المجموعة الأولى مرتبطة مكانياً مع البناية الغربية (4 : 1967a Lapp, 51- 53 : 1904 Sellin)، التي تمثل حي طبقة النخبة، وتلتصق الثانية مع البناية التي تعود للعصر البرونزي الوسيط الثاني «ج» والعصر البرونزي المتأخر الأول ، والتي خدمت ربما كحيّ للحرفيين (25 : 1969 Lapp) .

كان الدفن الأولي هو طريقة الدفن السائدة في تلّ تعنك . ولا توجد أية دلائل على الدفن الثانوي أو حرق العظام أسوة بمعظم مقابر العصر البرونزي الوسيط الثاني في فلسطين . وأمكن تقرير وضعية دفن الجثة في 14 قبراً كاملاً من مجموعة بول لاب، دفنت 12 منها في وضعية الإنثناء ، التي يبدو أنها كانت الممارسة السائدة، في حين دفن اثنتان منها في وضعية الامتداد التام . ولم يلاحظ اتجاه موحد للدفن .

وعثر في الموقع على مقابر فردية ومتعددة . ولكن أغلبية المدافن 86% منها هي

مدافن فردية . ويشمل هذا معظم مدافن الأطفال في الجرار . (Smith 1970) وترافقت المدافن الفردية مع الأواني الفخارية . وعثر على عدد قليل من الأغراض الدالة على المكانة في هذه المدافن .

ومن جهة أخرى هناك 14 قبراً متعدداً دفن فيها 37 فرداً ضمن هذه العينة . وهنا لوحظت ميزتان رئيسيتان ، الأولى ارتباط المدافن المتعددة غالباً بالبالغين والأطفال الكبار أكثر من ارتباطها بالأطفال الرضع . وتتكون من 13 طفلاً رضيعاً و 17 طفلاً كبيراً و 7 بالغين . الملاحظة الثانية، هناك تركز عال للأغراض الدالة على المكانة في المدافن المتعددة أكثر منها في المدافن الفردية .

ويمكن التمييز بين أربعة أنواع من القبور لدفن الأموات في «تل تعنك» وهي: مدافن الجرار، اللحود، المدافن البسيطة والمقابر البثرية. ويبدو أن العمر كان المحدد الأهم في توزيع أنواع القبور.

وهناك صنفان من العطايا الجنائزية عثر عليها في هذه المدافن؛ الصنف الأول ويتكون من الأواني الفخارية، حيث تم العثور على 200 إناء فخاري في المدافن الداخلية في تل تعنك . وتتكون هذه الأواني من خمسة أنواع رئيسية وبعض الأنواع الفرعية، وهي: الصحون، الجرار الكبيرة والصغيرة، الأباريق، جرار الخزن والأسرجة الفخارية . وتتكون أغلب هذه الأواني الفخارية من الجرار الصغيرة ذات الشكل الأسطواني والكمثري والمغطاس.

وعثر على عدة أصناف من عطايا القبور غير الفخارية في «تل تعنك» . وتتكون هذه الأغراض من: الزينة الشخصية، الجعلان، الدبابيس، الأدوات العظمية والمعدنية والحجرية . وقد أمكن التمييز بين ثلاث مراتب من المدافن على أساس توزيع عطايا القبور باستخدام معايير كمية وكيفية .

المرتبة الأولى

تضم القبور الغنية أكثر من خمسة أغراض . (Taha 1990 : 188 -189) وتتمثل هذه المرتبة في 16 مدفنًا (15%) من بين 108 قبور . وتضم قبور المرتبة الأولى 9 بالغين و5 أطفال كبار واثنين من الأطفال الرضع . وتحتوي قبور المرتبة الأولى، التي لا تتجاوز نسبتها (15%) من المجموع، ما يزيد عن نصف عطايا القبور، فهي تحتوي على 140 غرضاً (54.5%) من 257 غرضاً، مشيرة إلى قدر من تركز الثروة في نسبة صغيرة من هذه القبور . وقد وجدت النسبة الكبرى من هذه العطايا (67%) في قبور البالغين .

ويتضح مجدداً بأن العمر هو المحدد الرئيسي لنمطية هذه المدافن في «تل تعنك».

والنسبة العالية للأطفال الكبار والبالغين في المرتبة الأولى تبرهن على تساويهم في هذه المجموعة . وقد تلقى الأطفال بعد سن الثانية أو الثالثة معاملة دفن اعتيادية . ولم يعثر في العينة المكتشفة سوى على قبرين للأطفال في المرتبة الأولى ، منهم طفل في قبر مزدوج إضافة إلى مدفن فردي لطفل آخر . وتعتبر هذه المدافن دليلاً على المكانة الموروثة .

الملح الهام الآخر في قبور المرتبة الأولى يتمثل في نسبة الحدوث المرتفعة للمدافن المتعددة . وتتكون من سبعة قبور، منها أربعة مزدوجة، وثلاثة ثلاثية، وقبر واحد متعدد لستة أفراد . وربما يعكس تكوين القبر البناء الاجتماعي الداخلي للطبقة العليا في مجتمع «تل تعنك» القديم . كما أن تركز الأغراض الدالة على المكانة في بعض القبور ربما يعكس وجود مراتبية اجتماعية قائمة على الصلة بالثروة والمكانة . ورموز هذه المكانة هي الأغراض الثمينة والنادرة كالذهب والفضة والنحاس والبرونز والحجارة الكريمة .

المرتبة الثانية

زودت مدافن المرتبة الثانية بغرض أو غرضين فقط . وتمثل مدافن المرتبة الثانية (191- 189 : Taha 1990) النموذج العادي في «تل تعنك» . وينتمي 70 قبراً (65%) لهذه المرتبة، من بينها 47 مدفناً بغرض واحد و 23 مدفناً بغرضين . وتشكل الأواني الفخارية عطايا القبر الرئيسية لهذه المرتبة . وجميعها مرفقة بأنية فخارية واحدة، وتتميز بنسبة حدوث عالية للجرار الصغيرة . وتحتوي ثلاثة قبور فقط على أغراض غير فخارية، وجميعها ذات طبيعة غير دالة على المكانة . ويعتبر العمر ونوع القبر أهم المحددات لهذه المرتبة . ومعظم هذه المدافن (84%) هي مدافن جرار لأطفال رضع . الميزة الأخرى لهذه المرتبة تتمثل في نسبة الحدوث العالية للمدافن الفردية، ذلك أن 65 قبراً (92%) من مجموع 70 قبراً فردياً هي قبور فردية، في حين أن خمسة منها فقط هي قبور مزدوجة، أو دفن فيها ثلاثة أفراد . وتمثل قبور المرتبة الثانية ممارسة الدفن السائدة في «تل تعنك» ، ذلك أن الأطفال دون عمر السنة قد تلقوا الحد الأدنى من المعاملة الجنائزية . ولم يزدوا بالأغراض الدالة على المكانة، كمؤشر على تدني وضعهم الاجتماعي.

المرتبة الثالثة

تتكون المرتبة الأخيرة من المدافن التي لا تحتوي على أي نوع من العطايا

الجنائزية (192 - 191 : Taha 1990) وفي العينة المدروسة تبين أن 13 مدفناً (12%) تنتمي إلى هذه الفئة . وتتكون هذه العينة من 9 أطفال رضع وشخص يافع واحد، وامرأة بالغة وبالغين آخرين لم يتقرر جنسهما . ويدل غياب أي نوع من العطايا في هذه المدافن على المكانة الإجتماعية المتدنية لأفراد هذه المجموعة .

خاتمة

تناولت هذه المقالة البقايا الجنائزية كظاهرة أثرية و ظاهرة سويولوجية على حد سواء . وقد جرت الدراسة من زاويتين، زمنية وموضوعية . ويظهر التحليل الزمني للممارسات الجنائزية من الفترة الموسستيرية وحتى الألف الثاني ق . م . في فلسطين ، توافقاً بين تنوع السلوك الجنائزي والمستويات المختلفة للتعقيد الإجتماعي . أما التحليل الموضوعي والمكاني للبقايا الجنائزية لمقبرة الأطفال في «تل تعنك»، فقد قدّم رؤية للبناء الإجتماعي الداخلي لمجتمع مدني في الألف الثاني ق.م . وإنني لعلّ قناعة تامة بأننا بحاجة ماسة إلى المزيد من البحث الأثري والإثنوغرافي، لفهم رمزية التمايزات الجنائزية وعلاقتها بالعوامل الإجتماعية والإقتصادية .